السنة الثالثة ليسانس

التخصص: أدب عربي

الأفواج: (6.5.4.3.2.1)

المادة: قضايا النص الشعري القديم

– محاضرة –

الأستاذة : لرقـــم

المحاضرة الثامنة: رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي والمغربي

تعريـــــــــــــــــف رثـــــــــــــــــاء المـــــــــــــــــدن والممالـــــــــــــــــك:

يعد رثاء المدن غرضًا أدبيا و لونا من التعبير يعكس طبيعة التقلبات السياسية التي مرّت عبر عصـــــــــــــور الحكـــــــــــــم فـــــــــــــي مراحـــــــــــــل مختلفـــــــــــــة. وهذا النوع من الرثاء لا يقف في حدود عند رثاء المدن وحدها حين يصيبها الدمار والتخريب، ولكن يتجاوز ذلك إلى رثاء الممالك، بل قد يرثي الدولة بأسرها؛ كما حدث ذلك في الأندلس.

وقد ازدهر شعر رثاء المدن والممالك في الأندلس، وعلة ذلك تعود إلى أن طبيعة التقلبات السياسية في الأندلس كانت أشد حدة وأسرع إيقاعا، وأنها اتخذت شكل المواجهة بين النصارى والمسلمين حـــين تجمـــع الصـــليبيون عـــازمين علـــى طـــرد المســـلمين وإخـــراجهم مـــن الأنـــدلس.

وكان هذا الغرض في الأندلس من أهم الأغراض الشعرية، إذ كان مواكبًا لحركة الإيقاع السياسي راصدًا لأحداثه مستبطنًا دواخله ومقومًا لاتجاهاته، وكان محوره الأول يدور حول سلبيات المجتمع الأندلسي بسبب ما انغمس فيه الناس من حياة اللهو والترف والمجون وانصراف عن الجهاد، وأن الأمر لن يستقيم إلا برفع علم الجهاد تحت راية لا إله إلا الله، ومن هنا فالصوت الشعري لرثاء المدن في الأندلس يخالف الأصوات الشعرية الأندلسية الأخرى التي اعتاد عليها أهل الأندلس في الموشحات و وصف الطبيعة والغزل وبقية الأغراض الأخرى.

ويلفت النظر أن عددا من قصائد رثاء المدن في الأندلس لشعراء مجهولين؛ ويُفَسَّرُ ذلك إما خشيتهم من السلطان القائم بسبب نقدهم للأوضاع السياسية، وإما أن عنايتهم بالحس الجماعي واستثارته كانت أكثر من عنايتهم بذواتهم الشاعرة.

ويقوم هذا الرثاء على مقارنة بين الماضي والحاضر؛ ماضي الإسلام في مجده وعزه، وحاضره في ذله وهوانه، فالمساجد غدت كنائس للنصارى، وصوت النواقيس أضحى يجلجل بدلا من الأذان، والدويلات المسلمة تستعين بالنصارى في تدعيم حكمها، وتمتلئ كل هذه النصوص بشعور ديني عميق يطفح بالحسرة والندم.

وكان سقوط مدينة طليطلة في أواخر القرن الخامس الهجري بداية المأساة؛ فهي أول بلد إسلامي يدخله الفرنجة، وكان ذلك مصابا جللا هزّ النفوس هزًا عميقًا، فنظم الشعراء شعرا يرثي طليطلة تتضمن تصوير حال المسلمين عشية سقوطها وما أصابهم من ذل، كما يصور ماضيها المجيد وحاضرها المهين.

وكان رثاء شعراء الأندلس ممتزجا باستصراخ المسلمين لإنقاذ مدن الأندلس الفردوس الإسلامي من ملوك النصارى الحاقدين، فبعد سقوط سرقسطة وطليطلة ومدن الأندلس الشمالية، بدأ عهد الاستصراخ وطلب النجدة وكلما اقترب الصليبيون من المدن الباقية زاد الشعراء في ذلك، وقد برع عدة شعراء منهم على سبيل الذكر لا الحصر عبد الله العسال فقيه طليطلة ، والفقيه الشاعر أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني وأبا جعفر الوقشي.

وبعد سقوط بلنسية إثر معركة وحصار طويل في يد ملك اراجون سنة 636 هـ، وجه شعراء الأندلس نداء أخر لإنقاذ كبريات مدن شرق الأندلس والأخذ بثأرها ومنهم المقري.

وأما نونية أبي البقاء الرندي فهي واسطة العقد في شعر رثاء المدن وأكثر نصوصه شهرة وأشدها تعبيرا عن الواقع، فهي ترثي الأندلس في مجموعها مدنا وممالك، فتصور ما حلّ بالأندلس من خطوب جليلة لا عزاء فيها ، وكيف ضاعت قرطبة دار العلوم، وإشبيليا مهد الفن، وحمص مهبط الجمال، وكيف سقطت أركان الأندلس واحدة تلو الأخرى، وكيف أقفرت الديار من الإسلام فصارت المساجد كنائس، وغدا صوت الأذان صوت ناقوس؟!، ثم يتحدث أبو البقاء الرندي عن فرسان المسلمين المسارعين لنجدة الأندلس والمسلمين؛ إذ يقول في أول القصيدة:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصانُ فَلَا يُغَرُّ بِطِيبِ العَيْشِ إِنْسَانُ
هِيَ الأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتَهَا دُوَلُ مِنْ سَرَّهِ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ

وَلِلْحَوَادِثِ سِلْوَانُ يُسَـــهِّلُهَا وَمَا لمَـا حَلَّ بالإِسْلاَمِ سِلْوَانُ

إلى أن يقول:

فَاسْأَلْ بُلَنْسِيَةَ مَا شَـــأْنَ مُرْسِيَةَ وَأَيْنَ شَاطِـــبَةَ أَمْ أَيْنَ جَيَّانُ؟
وَأَيْنَ قُرْطُبَةَ دَارُ العُلُومِ، فَكَمْ مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَـــمَا فِيهَا لَهُ شَانُ
وَأَيْنَ حُمْصٌ وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نُـــزَهٍ وَنَهْرِهَـــا العَذْبُ فَيَّاضٌ وَمَلآنُ
قَوَاعِدُ كُنَّ أَرْكَانُ الـــــبِلاَدِ فَمَا عَسَـى البَقَاءَ إِذَا لَمْ تَبْقَ أَرْكَانُ
حَيثُ المَسَاجِدُ قَدْ صَـارَتْ كَنَائِسَ مَا فِيهِنَّ إِلاَّ نَوَاقِيـسٌ وَصُلْبَـانُ
حَتىَّ المَحَارِيبَ تَبْكِي وَهِيَ جَـامِدَةٌ حَـــتَّى المَنَابِرَ تَرْثِي وَهِيَ عِيدَانُ

ويختـتم الشـاعر القصـيدة بنغمـة حزينـة شـجية تسـفر عـن الأسـى العميـق والتمـاس العظـة والعبـرة فيمـا حـل بالأندلس:

لِمِثْلِ هَذَا يَذُوبُ القَلْبُ مِنْ كَمَدٍ إِنْ كَانَ فِي القَلْبِ إِسْلاَمٌ وإِيمَانُ!

وتتمثـل أهميـة رثـاء المـدن فـي أنـه يكشـف عـن جوانـب ثريـة مـن التـاريخ السياسـي بـين المسـلمين والنصـارى فـي الأنـدلس، كمـا يبـين جانبـا مـن النقـد الـذاتي الـذي واجـه بـه الأندلسـيون أنفسـهم، حـين أَدركـوا أن الانغمـاس فـي حيـاة اللهـو والتـرف أدى إلـى سـقوط رايـة الجهـاد، وأن ملـوك الطوائـف حـين حرصـوا علـى ملكهـم الفردي أضاعوا ملكًا أعظم.

المحاضرة التاسعة: المدائح النبوية والمولديات في الشعر المغربي

أولا- المدائح النبوية في الشعر المغربي

1-تعريف المديح النبوي:

تعتبر المدائح النبوية -كما يقول الدكتور زكي مبارك : "من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، فهي لون من ألوان التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص".

ولقد ظهرت المدائح النبوية منذ البعثة النبوية، ونشأت وترعرعت في أحضان الدعوة الإسلامية، ذلك أن المسلم يتخذ من الرسول صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة في شمائله وأخلاقه من مثل: التواضع، والحلم والوفاء والشجاعة والكرم، والصبر على الشدائد والمحن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها من الأخلاق الرفيعة، ولا يقتصر شعر المديح النبوي على مدح الرسول فحسب، بل تعداه إلى ذكر الأماكن المقدسة، ومعجزات النبي.

ويعد الكثير من الباحثين القرن السابع بمثابة العصر الذهبي للمدائح النبوية؛ حيث أصبح الشعراء ينْظِمُون قصائد خاصة بالمديح النبوي ذاته، وربما يرجع ذلك إلى الازدهار الذي عرفه الفكر الصوفي في هذا القرن، وبذلك حقق هذا الفن استقلاليته وذاته، ومن أقطاب هذه الفترة البوصيري مع بردته وهمزيته، ولكن هناك قصائد قبل الهمزية والبردة بقرنين من الزمن.

2-المديح النبوي في شعر المغرب العربي:

ارتبط المديح النبوي بالمغرب العربي ارتباطا وثيقا بالثقافة الاسلامية، فقد نجد بدايته ترجع إلى عصر المرابطين الذين لم يبخل شعراؤهم بالنظم في هذا الفن، كما هو الشأن عند القاضي عياض ومحمد عبد الله بن يحيى الشقراطيسي، وأما في عصر الموحدين فنبغ في هذا الفن ميمون بن خباز.

و ازدهر شعر المديح النبوي في عهد المرابطين والموحدين وسار على هذا المنحى شعراء القرن السابع الهجري، فأصبح الشعراء في هذه الفترة مبتكرين غير مقلدين .

ونجد رصيدا ضخما و تراثا عظيما قد خلفه لنا شعراء الغرب العربي (الاندلس و المغرب) بما انشؤوه في مدح نبي الاسلام ، من خلال شعر بن هاني ، و ابن شهيد و ابن دراج على سبيل المثال، فقد كان الاول يمدح الفاطميين بانتسابهم الى الرسول ، كما كان الآخران يمدحان بني حمود أصحاب قرطبة والجزيرة الخضراء بانتسابهم الى رسول الله أيضا ، و لما استولى المرابطون على مقاليد الامور في الأندلس

أيقـــــــض ذلـــــــك روح التـــــــدين ممـــــــا دفـــــــع الـــــــى نظـــــــم الشـــــــعر .

ففـي كتـاب ((نفـح الطيـب للمقـري)) يلحـظ القـارئ جانبـا مـن ذلـك الإسـهام، متمـثلا فيمـا رواه المقـري مـن المـديح النبـوي سـواء كـان مـن إنشـائه أو إنشـاء غيـره مـن الشـعراء، و قـد أخـذت مرويـات المـديح النبوي من المقدمة حيزا كبيرا .

و لقد كـان لانتشـار سـنة الاحتفـال بالمولـد النبـوي فـي المغـرب، أثـرأ كبيـرا فـي ازدهـار فـن المـديح النبـوي، ذلـك ان أمـراء الـبلاد وسـلاطينها احتفـوا بـذلك شـديد الاحتفـاء؛ فاقبـل علـيهم الشـعراء يلقـون بـين أيـديهم فـي ليـالي المولـد مـدائحهم النبويـة ، وقـد كانـت هـذه المـدائح فـي أغلـب الاحيـان تجمـع بـين مـدح النبـي ومـدح آل بيتـه المتمثلـين فـي الاميـر أو السـلطان ، كمـا كانـت تعـالج أيضـا فكـرة الجهـاد، علـى نحـو مـا نجـد عنـد شـعراء السـلطان المنصـور السـعدي ، و تعتبـر فتـرة حكـم هـذا السـلطان ((986 م 1012 هـ) مـن أخصـب الفتـرات فـي تـاريخ فـن المـديح النبـوي ، والتـي صـورت لنـا كتـب التـاريخ و الادب عنايـة المنصـور الشـديدة بإحيـاء ذكـرى المولـد النبـوي و كيـف انعكسـت هـذه العنايـة علـى شـعر العديـد مـن الشـعراء مثـل : الشـابطي و الشـيظمي و الفتلـي وغيـرهم ، ومـن أشـهر قصـائد هـذه الفتـرة نونيـة عبـد العزيـز الفشـتالي، و هـي قصـيدة طويلـة ، تقـع فـي مائة وأحد عشر بيتا ، و قد ذكرها المقري في كتابه نفح الطيب .

3-أسباب ظهور شعر المديح النبوي في المغرب العربي:

يرجع انتشار المدائح النبوية إلى باعثين:

أ- **الباعـــث الـــذاتي** : وهـذا الجانـب لـه علاقـة بنفسـية الشـاعر وشخصـيته المفعمـة بمحبـة الرسـول الكـريم والتغنـى بصـفاته وآثـاره، وقـد يصـل ذلـك بالشـاعر إلـى مرحلـة خاصـة مـن السـمو الروحـي الصـادرة عـن إيمـان صادق بالممدوح.

ب- **الباعـــث الموضـــوعي** : ويتجلـى فـي عنصـري الزمـان والمكـان، فقـد كـان الشـاعر المغربـي بعيـدا عـن الحـرمين الشـريفين، فنـتج عـن ذلـك اللهفـة للوصـول إليهـا والشـوق والتعلـق بالرسـول ، أمـا عـن الزمـان فتتعلـق بـالقوة التـي ظهـر بهـا النصـارى فـي القـرن السـابع فـي الأنـدلس وانهـزام المسـلمين، وقـد قضـى هـذا الحـال مـن التمزق إلى الاحتماء بالعقيدة، وأملى ذلك على شعراء هذه الفترة التشفع بالرسول صلى الله عليه وسلم.

ج- **اهتمـام المغاربـة بالسـيرة النبويـة** اهتمامـا بالغـا حيـث ألفـوا فيهـا كتبـا، بالإضـافة إلـى تميـز الثقافـة المغربيـة بالطابع الاسلامي وصارت ملمة بالقضايا الفقهية.

4-مضامين المدائح النبوية:

-1مدح الرسول وذكر مناقبه.

-2المعجزات النبوية

-3مكانته بين الانبياء والرسل

-4التوسل والاستشفاع

-5انقاذ البشرية من الغواية والضلال

-6الاحتفال بمولده وإظهار السرور

-7التشوق إلى الديار المقدسة عامة وقبر الرسول صلى الله عيه وسلم خاصة.

ثانيا – المولديات في شعر المغرب العربي:

1- التعريف بالقصيدة المولدية:

اشتهرت قصائد المولديات التي تختص بذكرى المولد النبوي، والتي تتميز بسهولة التعبير وخفة الوزن منذ عصر بنو مرين الذين حكموا المغرب منذ القرن السابع الهجري ، وتنشد في احتفالات المولد النبوي في الثاني عشر من ربيع الأول من كل عام، وتلقى بين يدي السلطان أو توجه إليه، يذكر فيها ما يتعلق ببيان نسب النبي صلى الله عليه وسلم الشريف، وشمائله، ومعجزاته صلى الله عليه وسلم، ويعرف في القصيدة بالموضوع الرئيس، إلا أنه قبل هذا يبدأونها بمقدمات متنوعة.

وشكلت القصيدة المولدية التي شاعت منذ أوائل المائة السابعة للهجرة ظاهرة متميزة شكلا ومضمونا في أدب المغرب العربي، ولا نكاد نعلم أول قصيدة مولدية قيلت بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف سوى ما أشار إليه الباحث العلامة محمد المنوني، فذكر "أشعار مولديات" لمحمد بن القاسم بن عمر بن عبد الله الصيرفي، و"قصائد مولديات" لأبي سالم إبراهيم بن محمد بن علي التازي.

إن الوقوف على مولديات أبي العباس أحمد ابن عبد المنان الخزرجي وأبى إسحاق إبراهيم بن عبد الله النميري المعروف بابن الحاج، ولسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب السلماني وغيرهم كثير ممن أبدعوا قصائدهم أثناء الاحتفال بالمولد النبوي الشريف زمن المرينيين كفيل برسم صورة عن اهتمام المغاربة بالقصيدة المولدية ، كما كان محمد المرابط الدلائي ومحمد بن قاسن بن زاكور، وحمدون بن الحاج، وسليمان الحوات ومحمد بن إدريس العمراوي، ومحمد بن أحمد اكنسوس وغيرهم من شعراء العصر العلوي أكثر إسهاما بقصائدهم في الاحتفال بالمناسبة.

ونلمس في قصائد المولديات عدة جوانب:

أ- أنها أشهر قصائد الشعر الديني في المغرب العربي وأكثرها ذيوعا.

ب- أنها قصائد دينية تختص بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

ج- أنها قصائد مدحية تُلْقَى بين يدي السلطان أو توجه إليه.

د- لقد كان اهتمام المغاربة بقصيدة المديح النبوي اهتماما كبيرا في أشعارهم لما فيها من تطور لرؤية فنية اتسمت معالمه بكثير من الدقة .

2- خصائص شعر المولديات :

- 1- يعطي الشاعر لشعره النبوي نكهة روحية خاصة لأن الممدوح في هذا المقام هو الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

- 2- الاهتمام بذكر صفات الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومناقبه وفضائله والتركيز على معجزاته التي خصه الله بها وجعلته يتفرد بها على سائر البشر، والتي تعتبر من دلائل نبوته.

- 3- قصائد مدحية تلقى بين يدي السلطان أو توجه إليه.

4- سهولة التعبير ووضوح المعنى وقوة التصوير باستخدام الصور البيانية والمحسنات البديعية للكشف على المغزى، كالجناس والاستعارة والمقابلة والتشبيه ..... إلخ.

-5- تجلي الزمان والمكان في هذه المولديات بكثرة.

- 6 - خفة أوزانها حيث تأتي في الغالب مجزوءة أو موشحة أو ما إلى ذلك.